المضايفة
في الدرس اللساني العربي

أ.م.د. لمى فائق جميل العاني
جامعة بغداد – كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الملخّص:

يعدّ مصطلح (المضايفة Correlation) واحداً من مصطلحات البحث العلمي واللساني في الوقت نفسه وهو يعني بحسب الدكتور منذر عياش "انه عند وجود قضية يحتاج حلها الى علمين، لأنها تشير الى أمرين بينهما تماثل، فإن احدهما يصبح شرطاً لوجود الأخر"(١). وقد أكد الاصوليون ذلك فتضايفت العلوم عندهم وتكوّنت بحسب رؤية شمولية، فصار البحث الدلالي عندهم نتاجاً لذلك، فقد تناولوا ظواهر لغوية مختلفة؛ وذلك كله من اجل الوصول الى المعنى القرآني العميق وفهم النص المقدس واستنباط الاحكام.

ولتداخل العلوم تاريخ طويل في اللغة العربية، وذلك ان العربية في بدء نشأتها كونها علماً كانت قد بدأت مع القرآن الكريم وتفسيره، فكان لابد من معرفة معاني المفردات القرآنية والتراكيب النحوية والاوزان الصرفية. وقد ارتبط الدرس القرآني باللغة العربية وقد أثر فيها وأثرت به، ولابد لمن يفسرّ القرآن الكريم من معرفة علوم اللغة العربية والتمكن منها.

ولم يقتصر الامر في الدراسات اللغوية العربية القديمة انما ظهر ذلك في الدرس اللساني الحديث، فاغلب اللسانيين المحدثين كانوا من اختصاصات متعددة ساعدت على فهم اللغة وبلورة نظريات لغوية عامة أكدت العلاقة بين اللغة والعلوم الأخرى، والى يومنا هذا، ونجد ارتباط اللغة قائماً في موضوعات عدة مثل: علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي ولولا تلاقح اللغة مع غيرها لما كانت هذه العلوم التي اسست لمناهج ونظريات مثلت الركيزة الاساس في الدرس اللساني. لا شك في أن الدرس اللساني عند العرب أو حقول المعرفة اللغوية العربية، لم تقم إلاّ بمشاركة علوم عدّة، وليس بجديد أن نذكر ان علم اصول النحو إنما تأثر بعالم أصول الفقه، ويتضح ذلك من استعمال المصطلحات ومن طريقة التفكير والتفسير والطرح، ذلك أن العقلية العربية المعرفية كانت قد استوعبت معارفها القديمة وعندما جاء الاسلام متجلياً بالقرآن الكريم وما نتج عنه من علوم، أسهم في انتاج علوم جديدة لخدمة القرآن الكريم والعربية بشكل عام، وقد عبرّ عن ذلك الباحث المغربي عبد الله هداري في بحثه (تأملات في التكامل بين العقل المكوِّن والعقل المكوَّن) إذ يقول في حديثه عن ابرز

المؤلفات النحوية واللغوية عند علماء العربية القدامى؛ "ولعلنا نلاحظ في هذه النصوص تأكيدا على الدور الذي كان للقرآن في ولادة علوم اللغة ونشأتها وتوسعها، وتأثيره ذاك، كما كان مباشرا من خلال إعمالهم لقواعد النظر النحوي فيه، كان تأثيره كذلك غير مباشر من خلال ما حفه من علوم، كأصول الكلام والفقه، والتفسير، إلا أن حالة التأثر هذه، لم تكن وحيدة الجانب، وإنما ارتدت من الطرف اللغوي أيضا باتجاه العلوم التي كانت السبب في نشأتها"[١] ومن هنا ارتأينا استعمال مصطلح للمضايفة Correlation، والتضايف "تعلق شيئين أحدهما بالآخر، فيكون وجود أحدهما سبباً لوجود الآخر كالأبوة والنبوة"[٢]، ويذكر الدكتور منذر عياشي إن مصطلح المضايفة "يعني فيما يعنيه إنه عند وجود قضية يحتاج حلها إلى علمين لأنها تشير إلى أمرين بينهما تماثل فإن أحدهما يصبح شرطاً لوجود الأخر"[٣]. وقد ادرك ذلك الاصوليون في وقت مبكر، فتضايفت العلوم عندهم وتداخلت لتكوّن رؤية شمولية[٤]. وربما كان الأمر عند الاصوليين أكثر عمقاً وأوضح منهجاً، وقبل ذلك كانوا أول من بدأ بوضع الخطوات الاولى للعربية لجعلها علماً وقبل ذلك للتمكن منها، وجعلها وسيلة لحفظ كتاب الله العزيز. وهذا الارتباط الدائم لم يكن بين العربية والقرآن بل بين العربية وعلوم أخرى، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقاً، وكذلك بين علوم العربية نفسها، فكلما تطور الزمان ظهرت علوم جديدة أثّرت في الدرس اللساني بكل مفرداته. ويمكنني ان اقسّم القضية زمنياً، قديماً وحديثاً.

*** قديماً**

- نقط الاعراب :

ذلك الانجاز اللساني الصوتي النحوي الذي قام به العالم العربي البصري (أبو الأسود الدؤلي ت٦٩هـ)، والقصة معروفة في أن هذا العالم دفعته غيرته على كتاب الله العزيز من أن يمسّه تحريف ولاسيما في مدينة البصرة التي تمتاز باختلاط مجتمعها وقد أدّى به ذلك إلى ان يقرأ المصحف أمام أحد طلبته النابهين[٥]، إذ قال له: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على اعلاه وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بين بعدي الحرف وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف، فأن أتبعت شيئاً من ذلك غنةً فاجعل النقطة نقطتين"[٦]. فسبحانه من حفظ القرآن الكريم بحفظ العربية، وبإنجازات علماء العربية الغيارى على دينهم وشريعتهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٧]. والأمر في مسألة نقط الإعراب لا تقف عند مضايفة النحو للقرآن الكريم، بل الصوت أيضاً، إذ يعدّ هذا الانجاز درساً صوتياً متقدماً في كيفية نطق الحركات التي هي اساس الدرس النحوي أيضاً، فالتضايف أو المضايفةُ هنا خارجية، اي بين القرآن الكريم والنحو أو ما يسمى بـ(علم العربية) وداخلية من جهة أي بين النحو والأصوات.

لقد كان للقرآن الكريم دور فاعل في ولادة علوم اللغة ونشأتها وتوسعها، وينطبق ذلك على جميع علوم العربية، في الدرس النحوي والصرفي والصوتي والدلالي، وقد ظهرت التفاسير الكثيرة بتنوع اختصاصاتها فالتقى التفسير الأثري بالتفسير اللغوي، وقد كان ذلك من أهم اسباب نشأة التفسير بالرأي، وقد ظهرت كتب معاني القرآن وإعراب القرآن التي أثْرت الدرس اللساني العربي في جميع جوانبه(٨).

- كتاب العين :

ولنا وقفة مع عالم عربي فذ هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) في منجزه (كتاب العين)(٩)، ولا يخفى أن هذا المعجم ما كان ليكون لولا تضايف علوم عدة استوعبها الفراهيدي جميعاً، حتى انصهرت وتجلت في هذا المنجز اللساني، عبقرية الفراهيدي في تمكنه من الصوت والدلالة، فقد رتب معجمه بحسب مخارج اصوات العربية، ثم قام بتقليب المادة اللغوية كي يتمكن من إحصاء المفردات، فقد كانت المضايفة هنا بين الدرس الصوتي واللهجات العربية بحسب نظمها البيئية، وتطبيق القواعد الاحصائية على المادة اللغوية، واستمرت المضايفة عند الفراهيدي في وضعه علم العروض فلولا تمكنه من علوم الرياضيات والاحصاء والايقاع والنغم، لما استطاع ان يحدد الدوائر العروضية ويسجل اول درس موسيقي يطبق على الشعر العربي. وتستمر المضايفة لدى علماء العربية فيما بين القرآن الكريم والعربية، وبين علوم العربية، ولست في معرض السرد التاريخي للمدونة العربية ولكن اقف على أبرز ما يخدم موضوع البحث أو في الأقل، اذكر ما يمكن ان يكون مثالاً واضحاً وهناك قضية مهمة لابد من ذكرها، وهي أن اهتمام العالم، وربما توجهه الديني وعقيدته أو فكره كل ذلك يؤثر بشكل أو بأخر في تفسيره الذي يتناوله بالشرح والايضاح، وكثيراً ما أثرّ الفكر المعتزلي في الدرس اللغوي العربي أو في التفسير. وكذلك في قضية أثر المنطق والفلسفة بشكل عام في اللغة وعلومها، حتى اننا في بعض الأحيان نجد تعقيداً أو غموضاً، ولكن كل ذلك يشكّل إثراءً بعمق ارتباط العلوم ببعضها، وقد اتضح أثر المنطق في المؤلفات النحوية، بل في المدونة النحوية العربية، إذ نجد في كتاب المقتضب للمبرّد (ت٢٨٥هـ) الكثير من التعقيد والغموض في اسلوبه لعرض المسائل النحوية، وفي إعطاء الامثلة، إذ قال في مسألة من مسائل باب الفاعل: "الضارب الشاتم المكرم المعطيه درهماً القائم في داره اخوك سوطاً أكرم الأكل طعامه غلامه زيد عمراً خالد بكراً عبد الله اخوك"(١٠). إذ نرى العقلية البعيدة عن وضوح اللغة، فالتداخل اللغوي واضح وكأنه يفترض جملة ليست موجودة بالفعل، ولكن الجدل العقلي أو لنقل الترف العقلي، ولاسيما في النحو العربي، وما وصل اليه هذا العلم في تلك الحقبة، إذ اصبح النحو ليس علماً لصون اللغة من الانحراف، وفهم النصوص بشكل صحيح، انما استعراض لثقافة الجدل والفلسفة التي سيطرت على بعض

النحويين. ومن أهم القضايا التي تجسدت فيها المضايفة بأوضح صورها، اهتمام علماء الاصول بدلالات الالفاظ في إطار السياق النصّي للقرآن الكريم، الأمر الذي عبرّ عنه منذر عياشي بقوله: "إن علم الاصول على وجه الإجمال أنما هو بحث في الدلالة لفظاً وجملة نصاً وسياقاً، وهذه أمور تشكل موضوع الدرس الدلالي المعاصر ومادة البحث فيه، أما عن اسلوب البحث فيه فقد قام على مبدأ المضايفة أو التلازم بين قوانين اللغة في إنتاج الخطاب، وضوابط السياق في تحديد دلالته وقواعد الشرع في توجيهها له على نحو مخصوص"(١١). ويذكر الدكتور كيان احمد حازم في مسألة أخرى: "أغفلها البحث الدلالي العربي الحديث ونبَّه عليها بعض دلاليّي الغرب، وهي اسقاط بعض الدلاليين مفاهيم العلاقات المنطقية على مفاهيم العلاقات الدلالية الجدولية أو الاستبدالية"(١٢). مؤكداً المضايفة بين المنطق والدلالة، إذ إن الانسان منذ وجوده على سطح الارض يلاحظ أن معاني الاشياء في الوجود من حوله ترتبط فيما بينها بعلاقات متسّقة لا يَدَ للإنسان في إحداثها وهي علاقات الارتباط المنطقي بين الاشياء(١٣).

- ثورة أبن مضاء :

وأود أن اختم القديم بثورة ابن مضاء (ت٥٩٢هـ) على النحو المشرقي ومدى تأثر بالمذهب الظاهري في كتابه (الرد على النحاة). قال الاستاذ علال الفاسي: "الثورة الظاهرية على المذهب المالكي في الفقه زمن ابن حزم، ولاسيما زمن الموحدين، صاحبتها فيما يظهر ثورة ظاهرية على المدارس النحوية، ... على جميع الذين صحوا إلى القياس وإلى التعليلات وما يضمه النحو من الحشوات التي سبق ان قال عنها الخليل بن احمد..."(١٤). ولسنا بصدد صحة دعوة ابن مضاء أو عدمها، ولكن نلاحظ أثر الفكر المذهبي في تفسير النحو العربي ولاسيما نظرية العامل. ومن هنا تتداخل قضايا اللغة بالمسألة الدينية ومنها المذهبية فقد ظهر أثر المذهب الديني في التأليف اللغوي وقد يكون التأليف في هذا الامر اسقاطاً لمعتقداً أو فكراً، وهو امراً لا يتخلى عنه الفكر البشري بل المجتمع البشري بصورة عامة وكثيراً ما يظهرُ معتقد المؤلف أو العالم أو دينه أو مذهبه أو ثقافته أياً كانت في كتابه وهو امرٌ يمثل فطرة الانسان، على الا يتعارض مع غيره من المؤلفات أو الحقائق أو الافكار التي تمثل طرحاً لآخر أياً كان توصيفه.

*** حديثاً**

وقد تطول المسألة في المضايفة بين العربية وعلوم أخرى أو بين علوم العربية نفسها، ونظرة واحدة إلى مؤلفات علم اللغة أو اللسانيات تكفي لتؤكد أنه لا يمكن ان يقوم الدرس اللساني الحديث من غير مضايفة بين علمين أو أكثر.

– **نظريات نشأت اللغة الانسانية :** وأولى هذه النظريات كانت نظرية الالهام او الوحي أو التوقيف وهي نظرية قديمة ولكنها ظهرت مع مؤلفات علم اللغة في القرن الماضي فكلما ما لا يمكن الوصول الى حقيقته أو يصعب تفسيره تكون نسبته الى الخالق عز وجل أو الى امراً مقدس، فقد ارتبط تفسير اللغة بالإلهة في جميع حضارات العالم، في الهندية والصينية والفرعونية والبابلية، فأمر اللغة والكلام والكتابة امر عظيم لم يتمكن القدماء من تفسيره، لذلك نسبوه الى الالهة والى المعابد والكهنة وقد استمر الامر في تفسير قدرة البشر على اللغة في ان الله عز وجل اقدره على ذلك.

– **علم اللغة (اللسانيات) والعلوم الاخرى :**

والترابط وثيق بين علم اللغة وعلم النفس الذي نشأ عنه (علم اللغة النفسي) فيما يتعلق بالفهم والادراك ومشاكل النطق وأمراض الكلام ... الخ[١٥]. وكذلك ما يخص الجهاز النطقي ومخارج الاصوات وصفاتها، ودراسة ذلك مختبرياً أي المضايفة بين اللغة والعلوم التطبيقية (الصرفة) كالفيزياء والفسلجة (علم وظائف الاعضاء) وقد ظهرت الكثير من المؤلفات في هذا الصدد[١٦]. والأمر نفسه في الارتباط بين علم اللغة وعلم الاجتماع، إذ لا يمكن تصور لغة من غير مجتمع بشري ينطق بها والعكس صحيح، فاللغة تسجّل لنا الحضارة والقيم والعقائد والاتجاهات والمستويات ... الخ. وهي تمثل بيئة ناطقيها وتعكس أثر التفاوت بين طبقات المجتمع[١٧]، واغلب ما ظهرت من نظريات لسانية في القرن المنصرم كانت نتيجة مضايفة بين علمين أو أكثر، بل أن اغلب العلماء الذين اشتهروا في ميدان اللغة في العصر الحديث لهم اهتماماتهم في غير اللغة، الأمر الذي مكّنهم من استيعاب التداخل والارتباط، ولذلك نجد مثلاً في النظريات الدلالية، ولاسيما في النظرية السلوكية وهو مصطلح نفسي، ما يشير الى ارتباط اللغة بعلم النفس، وذلك ان علماء السلوك عدّوا اللغة سلوكاً ظاهراً، لذلك فسّروا اللغة بطريقتهم السلوكية، واما اصحاب نظرية السياق، فقد نظروا الى الحدث او ما يسمى مقام الحال او الموقف كي يتمكنوا من ضبط الدلالة[١٨] والمضايفة كبيرة وواسعة ومتشعبة بين علم الدلالة وغيره من العلوم، فالإدراك الانساني له مديات يصعب استيعابها بكلمة او فكرة او نظرية، لذلك نجد ان علم الدلالة علم واسع لا يمكن حسم موضوعاته، فمقترباته كثيرة ومتداخلة، تختلف من جيل الى آخر ومن مجتمع الى أخر بل من انسان الى أخر، ونجد المضايفة هنا داخلية اي بين علوم العربية نفسها اي بين

الدلالة والحقول اللغوية الاخرى كالصوت والصرف والنحو، او مضايقة خارجية كعلم الدلالة والمجتمع او علم النفس او الانثرويولوجيا..الخ. والمسرد يطول في ذكر المناهج اللسانية الحديثة التي توضح حجم المضايقة بين اللغة والعلوم الاخرى انسانية او تطبيقية، مثلاً[١٩]:

- اللسانيات الرياضية.
- اللسانيات التاريخية.
- علم الحركة الجسمية.
- اللسانيات الجغرافية.
- اللسانيات الاجتماعية.
- اللسانيات النفسية.
- اللسانيات البيولوجية.

وهناك الكثير من العلوم التي ربما ستظهر في المستقبل لتؤكد اللغة لا يمكن ان تدرس بصورة متكاملة بضيافة علوم أخرى، فالإنسان لا يعيش بحقل واحد او في بيئة واحدة، قال تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[٢٠].

الخاتمة:

- لم يكن الدرس اللساني العربي بمعزل عن المضايفة مع علوم اخرى قديماً وحديثاً.
- كان التضايف إما خارجي اي اللغة مع القرآن الكريم او اللغة وعلوم اخرى، وإما داخلي اي بين علوم اللغة نفسها. وهو امر قديم وحديث.
- لقد أبدع الفكر اللغوي العربي في ترسيخ الارتباط بين العلوم وتداخلها وصولاً الى ادق تفاصيل الحياة العقلية.
- كانت المدّونة العربية ثرية في عمق الترابط وسعة التضايف بين العلوم واللغة، ويمكن ان يكون ذلك احد ثمار الفعلية العربية الموسوعية.
- لقد حفظ الله كتابه العزيز بأن يسّر علماء افذاذ استطاعوا ان يكون بمستوى الأمانة اكبر حملوها وحافظوا عليها.

التوصيات: لا بد من تشجيع الدراسات التي تهتم بتداخل العلوم وتوسيع الدوائر المعرفية، ونظراً لاتساع آفاق الحضارة الانسانية، ولاسيما فيما يخص الفهم الديني والإرث الحضاري بشكل عام، مما يؤكد قدرة الانسان على التواصل مع أخيه الانسان، وصولاً الى فهم شامل وعميق للمعرفة الانسانية.

الهوامش:

(١) في التراث اللغوي العربي: تأملات في التكامل بين العقل المكوِّن والفعل المكوَّن بحث على الشبكة العنكبوتية.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة المجلد الثاني ١٣٧٧.

(٣) اللسانيات والدلالو: ١٣.

(٤) ينظر: نفسه: ١٣.

(٥) ينظر: المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، ٥٤.

(٦) مراتب النحويين، ١٠-١١.

(٧) الحجر/٩.

(٨) ينظر: في التراث اللغوي: تأملات في التكامل بين العقل المكون والعقل المكون بحث مع الشبكة العنكبوتية.

(٩) ينظر: المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، ٨٣.

(١٠) ينظر: المقتضب، ٢٢/١ وما بعدها.

(١١) اللسانيات والدلالة: ١١.

(١٢) التقابل اللغوي في ضوء تصنيف العلاقات الدلالية وخصائصها: ٦٥.

(١٣) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٤) تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب: ٣١٧.

(١٥) ينظر: أمراض الكلام ودراسات في علم اللغة النفيس وعلم اللغة، د. حاتم الضامن.

(١٦) ينظر: كل الكتب المؤلفة في علم الاصوات، علم الاصوات لكمال بشر والتشكيل الصوتي لسمان العاني...الخ.

(١٧) ينظر: لغات البشر، ٨٢-٨٣.

(١٨) ينظر: علم الدلالة. د. احمد مختار عمر، ٥٤-١٤٣.

(١٩) ينظر: اللسانيات اتجاهاتها وتضاداها الراهنة، ١٣-٣٠.

(٢٠) الحجرات/ ١٣.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، د. محمد المختار ولد أبّاه، مراجعة: د. محمد توفيق ابو علي ونعيم علوية، ط١، ٢٠٠١م.
- التقابل اللغوي في ضوء تصنيف العلاقات الدلالية وخصائصها، د. كيان احمد حازم يحيى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٨.
- علم الدلالة، احمد مختار، عالم الكتب، الطبعة السادسة، ٢٠٠٦م.
- علم اللغة، د. حاتم صالح الضامن، كلية الاداب، جامعة بغداد.
- في التراث اللغوي- تأملات في التكامل بين العقل المكوِّن والعقل المكوَّن، عبد الله هداري، بحث علة الشبكة العنكبوتية.

- اللسانيات والدلالة، د. منذر عياش، مركز الانماء الحضاري، ط٢، ٢٠٠٧م.
- لغات البشر، ماريو باي، ترجمة: د. صلاح العربي، القاهرة، ١٩٧٠.
- المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، مطبهة جامعة بغداد، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- مراتب النحويين، ابو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي، حققه محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٥٤م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، احمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الاولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- المقتضب: ابو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، القاهرة، ١٣٨٥هـ-١٣٨٨هـ.

The Correlation in the Arabic Tongue Lesson

Abstract

The term "Correlation" is one of the terms of scientific research and tongue at the same time and it means according to Dr. Munther Ayyash "Where is a case that needs to be resolved to two sciences because it refers to two things that are similar, one becomes a condition of the other." The fundamentalists have replaced that , the science incorporated for them , and they are in comprehensive vision, so the semantic search has become a product of that, have addressed different linguistic phenomena, all in order to reach the deep Quranic meaning, understand the sacred text and derive the provisions

The intersection of science has a long history in Arabic language , as the Arabic language at the beginning of its inception being a science that had begun with holy Quran and its interpretation, there was a need to know the meanings of the Qur'anic vocabulary, the grammatical formulas and the weights. The Qur'anic lesson has been linked to the Arabic language and has influenced and influenced it, and those who interpret the holy Quran must learn about and be able to teach Arabic language.

Not only did in the old Arabic language studies appear in the modern tongue lesson, most of the modern linguists were of multidisciplinary that helped to understand the language and crystallized general language theories that confirmed the relationship between language and other sciences, to this day, we find the link of language in several topics such as: Sociology of social language and psychology and without the cross-fertilization of language with others, this science would not have been that founded for the curriculum and theories represented the foundation pillar in the tongue lesson.

هوامش البحث :

(١) اللسانيات والدلالة: ١٣.